الفيل الهندي

اكثر ما اوردناهُ في الجزء الماضي من طبائع الفيل خاصٌّ بالفيل الافريقي لكن الفيل الهندي لا يختلف كثيراً في طبائعهِ عن الافريقي . ويمتاز عنهُ بان رأسهُ اكثر تسطحاً واذنيهِ اصغر وشعر جلدهِ اقل وظهرهُ مقوَّس كأنهُ مسنٌّ . والغالب ان يكون نابا اناثهُ صغيرتين لا تكادان تبرزان من شدقها وقد تكون نابا الذكر صغيرتين ايضاً

﴿ لونهُ ﴾ ان ما تقدم هو اهم الفروق الظاهرة بين الفيل الافريقي والهندي ثم ان الفيل الهندي رمادي ضارب الى السواد وقد يكون فيهِ لطخ محمرَّة في جبهتهِ واذنيهِ وقد يزول لونهُ فيكون ابيض او ابلق . واذا كان كذلك فلهُ شأن كبير في برما وسيام ويعدُّ مقدساً . وقد ثبت حديثاً ان في جلد الفيل الهندي اثار صوف فيتصل بالفيل المعروف بالماموث الذي وجد مدفوناً في ثلوج سيبريا وعليهِ فوطنهُ الاصلي في العروض الشمالية الباردة

﴿ حجمهُ ﴾ علو الذكر ٩ اقدام والانثى تنقص عنهُ قدماً وقد بلغ علو الذكر احياناً ١١ قدماً . وقيل انهُ بلغ مرةً ١٢ قدماً . ويختلف حجم نابي الذكر كثيراً فقد وجد المستر سندرسن نابين طول كل منهما ٥ اقدام ومحيطها حيث تبرز من الفك ١٦ عقدة وثقلها ٧٤ ليبرة ونصف ليبرة وقتل آخر فبلاً طول نابهِ ٨ اقدام ومحيطها عند قاعدتها ١٧ عقدة وثقلها ٩٠ ليبرة . ووجدت ناب اقصر منها طولها ٦ اقدام وثقلها ١٠٠ ليبرة وناب اخرى ثقلها ١٥٧ ليبرة

﴿ عمرهُ ﴾ لا يعلم كم يعمّر الفيل البري وقد وجدت فيلة صغيرة سنة ١٨٠٥ وعمرها نحو ٣ سنوات ولم يظهر عليها سنة ١٨٧٨ انها بلغت سن الكهولة . ويعيش الفيل الداجن احياناً اكثر من مئة سنة ولعلهُ يعمّر مئة وخمسين سنة اذا كان بريئاً

﴿ اماكنهُ ﴾ يقيم الفيل الآن في حراج الهند وسيلان واسام وبرما وسيام وكوشين صين وسومطرا وبورنيو وقد يصل في جولانهِ الى ما ارتفاعهُ سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر . وكان في ازمن الغابر اكثر انتشاراً في بلاد الهند منهُ الآن

ويكثر تردده على الحراج العالية الاشجار حيث الارض جبلية كثيرة القنا الهندي ويلازم الاماكن الظليلة في شهور الحر على مقربة من الماء حتى اذا وقع المطر خرج منها

الى السهول يرعى ما ينبت فيها وهو قليل الصبر على حر الشمس فلا يتعرّض لاشعتها مختاراً لاسيما وان جلدهُ اسود يمتص الحرارة ولذلك تراهُ قلقاً كلما اشتدَّ حر النهار ولاسيما اذا حُمِّل الاحمال الثقيلة

وتُرى قطعان الافيال في مسارحها وفي التطليع منها ثلاثون فيلاً الى خمسين وهي من عائلة واحدة وقد يكون فيهِ مئة ولكن اذا قلَّ الطعام انفصلت الافيال الكبار عن القطيع وذهبت فرقاً صغيرة تتتبع المرعى لكنها لا تبعد بعضها عن بعض اكثر من ميلين او ثلاثة ثم تجتمع كلما تيسَّر لها الاجتماع . وتعطى القيادة دائماً لانثى لا لذكر ولو كان منها ذكور اكبر منها سنًّا . وتسير الاناث وصغارهن في المقدمة وتتبعها الذكور الكبار في الساقة . والغالب ان تنفصل الافيال الكبار عن القطيع احياناً وتشكل اخلاقها ولكنها لا تلبث ان تعود الى قطيعها وما شذَّ عن ذلك وبقي معتزلاً وحدهُ نادر جدًّا . والظاهر ان الافيال التي تنفرد انما تفعل ذلك لكي تغزو المزارع وتعيث فيها لان الافيال الصغيرة تحجم عن ذلك

﴿ طعامهُ وشرابهُ ﴾ اكثر طعام الفيل الهندي من العشب واوراق القنا والطرىّ من خراعيبهِ واوراق الموز البري واثمارهِ واوراق بعض الاشجار ولاسيما التين . وهو يتناول طعامهُ بخرطومهِ بلفِّ رأسهُ على العشب ويقتلعهُ وعلى الغصن ويكسرهُ وعلى الاوراق ويتنزعها واما الاشياء الصغيرة كالاثمار ونحوها فيقطفها او يلتقطها بالنتوات التي في فتحة خرطومهِ كما تلتقطها بانامله . واذا اراد الشرب غطس خرطومهُ في الماء وامتصهُ بهِ ثم افرغهُ في حلقهِ . وهو يرد الماء غالباً بعيد الغروب وقبيل الشروق . واذا اراد اكل الحبوب امتصها بخرطومهِ ثم افرغها في فيهِ

ومن عادة الافيال البرية ان تفتش عن طعامها نهاراً وليلاً والغالب انها تقيل من الساعة التاسعة او العاشرة صباحاً الى الثالثة بعد الظهر ومن الحادية عشرة ليلاً الى الثالثة صباحاً وتبرك حينما تنام واذا باغتها مباغت وهي ترعى تفرقت ولكنها لا تلبث ان تجتمع حالاً

﴿ السباحة ﴾ الفيل مغرم بالغوص في الماء والتمرُّغ في الحمأة اذا لم يكن البرد شديداً ولكنهُ قلَّ يفعل ذلك بعد شروق الشمس بل يكتفي بامتصاص الماء بخرطومهِ وصبهِ على بدنهِ واذا اشتدَّ الحرّ عليهِ ولم يجد ماء يبرد جسمهُ بهِ برَّدهُ بالصعيد البارد ينثرهُ على جسمهِ او باوراق الاشجار يلقيها على ظهرهِ

وهو من اقدر الحيوانات على السباحة بعد الحيوانات المائية . ذكر المستر سندرسن انهُ

كان مرة يسوق قطيعاً فيهِ ٧٩ فيلاً فسارت ست ساعات امامهُ سباحة واستراحت قليلاً على كثيب من الرمل ثم عادت الى الماء وسبحت ثلاث ساعات اخرى حتى اتمَّت سيرها. واذا سبح الفيل غاص في الماء كلهُ ولم يبن منهُ الاَّ خرطومهُ او خرطومهُ وجانب من رأسهِ وهو يقطع ميلاً في الساعة سباحةً واذا كان سائراً مع التيار فاكثر من ذلك

﴿ سيرهُ ﴾ سير الفيل سريع ولكنهُ لا يعدو عدواً . والعدَّاء السريع يسبقهُ اذا كانت الارض سهلاً ولكن في الحزون التي توجد فيها الاوعال عادةً يتعذَّر على العدَّاء المرب منهُ الاَّ اذا عدا واختفى وراء الصخور او بين الادغال

ولا يستطيع الفيل ان يثب ولا تزيد خطوتهُ على ست اقدام ونصف قدم فاذا كان في طريقهِ خندق سعتهُ سبع اقدام تعذَّر عليهِ قطعهُ ولكن لا يتعذر عليهِ الصعود الى الاماكن العالية والنزول منها ولو زحلقةً

﴿ صوتهُ ﴾ للفيل الهندي اصوات مختلفة بعضها من خرطومهِ وبعضها من حلقهِ اولها الصئي وتختلف طبقتهُ حسب حالة الفيل من الخوف والغضب وثانيها الزئير وهو من حلقهِ وسببهُ الخوف والالم وثالثها القرقرة وهي دليل الغيظ والحاجة كما اذا دعا عجلٌ امهُ ورابعها الصريف وهو علامة الرضى وخامسها الصفير وهو دليل الكراهة والحذر وبهِ يُعلم ان الفيل رأى ببراً او استروحهُ

﴿ فهمهُ ﴾ لقد بالغ الكتَّاب في ما ذكروهُ عن فهم الفيل . قال الدميري انهُ يقبل التأديب ويفعل ما يأمرهُ بهِ سائسهُ من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالتي السلم والحرب . وقال ابو الحسن الجوهري في وصفهِ

اذكى من الانسان حتى لو رأى خلاً لسدا

وقصيدتهُ في وصفهِ من غرر الشعر الوصفي ومنها قولهُ

فيلٌ كرضوى حين يلبسُ من رقاقِ الغيمِ بُرْدَا
مثل الغمامة مُلِّثت أكنافها بَرْقاً ورعدَا
رأسٌ كتفأة شاهقٍ كسيت من الخيلاء جلدَا
فتراهُ من فرط الدلا لو مصعراً للناس خدَّا
يزهى بخرطومٍ كشل الصولجان يُرَدُّ ردَّا
يسطو بساريتي لجينٍ يحطمان الصخر هدَّا

أذناهُ مروحتان استندتا الى الفودين عقدا
عيناهُ غائرتان ضُيقتا لجمع الضوء عمدا
فلكُ كخوذةِ الخليج يلوك طول الدهر حقدا
تلقاهُ من بُعدٍ فتحسبهُ غماماً قد تبدى
متناً كجبلان الخور تق مائلاً في الدهر كدّا
ذنباً كثل الوطب يضرب حولهُ ماءً وزبدا
يخطو على امثالِ أعمدةِ الخباء اذا تصدى
او مثل اميالٍ نضد ن من الصخور الصم نضدا
متملكاً فكأنهُ متطلبٌ ما لا يؤدّى
متلفعاً بالكبريا ء كأنهُ ملكٌ مفدّى
اذكى من الانسان حتى لو رأى خلاً لدّا

اما الذين راقبوهُ في هذه الازمان فقالوا انهُ اذا كان اسيراً فهو غاية في الطاعة والوداعة ويتعلم عمل بعض الاعمال التي تقتضي فهماً ومهارة كنقل الخشب الطويل ورصفهِ رصفاً متقناً والوقوف على الكرات الكبيرة بقوائمهِ الاربع لكنهُ قلما يفعل الاَّ ما دُرّب على فعلهِ ودماغهُ يدل على ان فهمهُ اقل من فهم الكلب

قال السرصموئيل باكر « ان الفيل يتعلَّم عمل بعض الاعمال لكنهُ لا يعمل الاَّ ما دُرّب على عملهِ اي انهُ لا يبتكر شيئاً ولا يخدم صاحبهُ من تلقاء نفسهِ ولم يبلغني عن فيل حاول تخليص صاحبهِ من الغرق او الهلاك وقد يهجم عليك عدو ويقتلك امام عيني فيلك والفيل لا يحاول انقاذك ولا الاخذ بثارك بل قد يبقى واقفاً في مكانهِ كالصنم او يلجأ الى الفرار الاَّ اذا امرهُ الفيَّال ان يفعل شيئاً آخر ولكن ذاكرتهُ قوية جداً فيذكر الخير ويذكر الشر فعُدَّت ذاكرتهُ من قبيل الفهم » اما الكلب فانك اذا اسأت الى صاحبهِ هجم عليك ليمزقك واذا وقع صاحبهُ في هلكة حاول تخليصهُ منها بكل طاقتهِ وقد يفتديهِ بنفسهِ

﴿ اطوارهُ ﴾ يبقى الفيل الهندي وديعاً اكثر شهور السنة لا يبادئ بشر بل يهرب ممَّن يهاجمهُ ولكنهُ يهيج احياناً ويصير دأبهُ الهجوم والعدوان وقد يقطع الطريق على السابلة في بعض الاحيان اما الانثى فان كان معها فلوها فالدنو منها محفوف بالخطر دائماً واذا اغتلم الفيل جهل جهلاً شديداً وهو حينئذٍ يقتل الانسان ويهاجم الافيال ويساجلها ويُستدَلُّ على

اغتلامهِ بسائل اسود كالقطران يخرج من ثقبين في جبهتهِ ومتى خرج هذا السائل من جبهة فيل داجن وجب وضعهُ في مكان يؤمن شرهُ فيهِ

﴿ توالدهُ ﴾ قلما يلد الفيل وهو في الاسر . ومدة حمل الانثى نحو ١٩ شهراً وقد تنقص فتكون ١٨ شهراً وقد تطول فتبلغ ٢٢ شهراً ووقت الولادة الخريف من سبتمبر الى نوفمبر والغالب ان الفيلة تلد واحداً في البطن الواحد وقد تلد اثنين . وعلو الفيل حينما يولد ثلاث اقدام وثقلهُ نحو ٢٠٠ ليبرة ويرضع بفيهِ لا بخرطومهِ

﴿ صيد الافيال ﴾ من رأي السر صموئيل بأكر ان صيد الفيل اكثر انواع الصيد خطراً لانهُ اذا جُرح ولم يُقتل هجم على الصياد حتماً وقلما ينجو صياد من فيل جريح يهجم عليهِ . ولهُ ثلاثة مقاتل يرمى فيها فيقتل الاول في وسط جبهتهِ فوق الخط الواصل بين عينيهِ بثلاث عقد اذا كان واقفاً ووجههُ متجه الى الصياد واما اذا كان هاجماً ورافعاً رأسهُ وجب تسديد الرصاص اوطأ قليلاً . والمقتل الثاني في صدغهِ والثالث وراء اذنهِ

والفيل البري لا يبادئ بالعدوان كما تقدم ولكنهُ قد يفعل ذلك اذا ربع وحينئذٍ يهجم ببأس شديد . وقد وصف المستر سندرسن هجومهُ فقال . قلما يستطيع احد ان يصور منظراً ارهب من منظر الفيل البري وهو هاجم على خصمهِ بجبهة عريضة واذنين منتصبتين ورأس شامخ وخرطوم مقوس بين نابين كساريتين من لجين هجومهُ باسل لا يرتدُّ تطأ رجلاهُ وطأً منتظماً كأنهما مطرقتا آلة بخارية ويظهر كأن جسمهُ يتضاعف في كل خطوة ويتعذر عليهِ ان يصوت وهو عاكف خرطومهُ فيهاجم خصمهُ صامتاً بعد ان يزعق في بداءة الهجوم

اذا درى قطيع الافيال بالصياد فالفيل الذي يدري بهِ اولاً يصوت والغالب ان يقف القطيع كلهُ حينئذٍ بضع دقائق قبل ان يجمع امرهُ على الخطة التي يسير فيها او يركن الى الفرار حالاً وقد يخطئ مكان الصياد فيفر اليهِ بدلاً من ان يفر منهُ وهناك منتهى الخطر على الصياد وسبيلهُ حينئذٍ ان يلصق بساق شجرة . واذا لم تعتد الافيال سماع صوت البارود وسمعتهُ ارتصَّت بعضها على بعض حاسبة اياهُ رعداً قاصفاً . واذا فرَّت اسرعت في سيرها اولاً ثم تسير الهوينا

ذكر المستر سندرسن نادرة جرت لهُ قال رأيت مرةً قطيعاً فيهِ خمسون فيلاً وكانت تصئي شديداً وتكسر القصب على نحو مئتي متر منا فعلمت انها في قتال بينها واسرعت اليها انا والذين معي حتى لم يبقَ بيننا وبينها الاَّ وادٍ عميق وكانت رؤوس القصب الهندي تتمايل وتنحني

بسرعة كالاسد من شدة الصدام واصوات الخصمين تصمُّ الآذان واذا باحدهما زأر زئير الاسد وقطع الوادي وعبر الى الجهة التي كنا فيها وحمل يكسر عيدان القنا من غيظهِ ويحط غطيط الالم والغيظ . وكان الدم يشخب من جرح غائر في حاصرتهِ اليسرى وهو من الافيال الكبيرة بنا بين طويلتين غليظتين واليسرى منهما اقصر من اليمنى ولا بدَّ من ان خصمهُ كان جباراً عنيداً والاَّ ما استطاع قهرهُ . واذا وقع الصدام بين فيلين ندَّين فالغالب ان يستمر يوماً كاملاً او اكثر فيقتتلان مدة ويفترقان ثم يعودان الى القتال وهكذا الى ان تدور الدائرة على احدهما فيُقتل او يفرُّ من وجه خصمهِ مضرَّجاً بدمائهِ . وكثيراً ما تبتر الاذناب في هذه المعارك (وهي اسلحها) وقد يبتر ذنب الانثى من غيرة زوجها عليها . ولما رأينا هذا الفيل الجريح عملنا ان الدائرة دارت عليهِ . وقلما رأيت البأس والغيظ متمثلين في حيوان كما رأيتهما فيهِ وكان يحصد القنا الغليظ بخرطومهِ حصداً ويطحنهُ بقدميهِ من شدة حنقهِ . ثم وقف بغتةً كأنهُ استروحنا ومدَّ خرطومهُ نحونا لكي يحقق الامر وكنا واقفين خلف قصباء تدرانا فظننت انهُ يفرُّ هارباً من وجهنا حالما يعلم اننا هناك ولكن غيظهُ تغلب على خوفهِ فبسط اذنيهِ وشال بذنبهِ وهجم علينا . ولم تكن القصباء لتقينا منهُ وقد توقفنا عن تسديد رصاصنا اليهِ فخرجت من ورائها وزعقت في وجههِ لعلي اخيفهُ فلم يخف ولم يقف فاطلقت الرصاص على خرطومهِ لعلهُ يفرقهُ ويصل الى جبهتهِ بين عينيهِ وانا واثق اني اصبتهُ وان الضربة قاتلة . ولم يكد دخان البارود ينكشف من امام عيني حتى وجدت انهُ لا يزال هاجماً عليَّ وقد خفض رأسهُ وامتدَّ نابهُ امامهُ كالمذراة فلم يبقَ لي الاَّ ان احيد من طريقهِ وارتمي على الارض ولم اكد اصل اليها حتى كادت يداهُ تطآني وصاح صوتاً مزعجاً فعلمت ان خرطومهُ انبسط لانهُ لا يستطيع ان يصوت وهو معكوف ولا يبسطهُ كذلك وهو هاجم بل وهو هارب . ولو وقف لحظة لطحن عظامي لكنهُ استمرَّ هارباً وقد غطاني دمهُ ويبس على شعري

﴿ صيدهُ حيّاً ﴾ قلنا يتوالد الفيل في الاسر كما تقدَّم فيضطر امراء الهند وملوكها ان يصيدوا الافيال صيداً لكي لا يقلَّ ما عندهم منها . ولهم في صيدها اساليب مختلفة اشهرها ان يسوقوها الى حظيرة يحيط بها سياج منيع يتعذَّر عليها تخطيتهُ او ان يصطادوها بواسطة اناث مضراة على ذلك او ان يأخذوها بحفر يحفرونها لها او بوهق يرمونها بهِ وهم راكبون على افيال اليفة . والاسلوب الاول يستعمل لصيد الكثير من الافيال دفعةً واحدة . وقد طال الكلام الآن فنرجئُ نتمتهُ الى الجزء التالي